الفصل الرابع

القدَر بين الجحود والجمود

«إنَّ الله أراد بنا أشياء، وأراد منا أشياء.. فما أراد بنا طواه عنا، وما أراده منا أظهره لنا، فما بالنا نشتغل بما أراده بنا عما أراده منا؟».

ـ الإمام جعفر الصادق ـ

رضي الله عنه

«القضاء والقدر» مشكلة فلسفية شغلت البشرية، منذ أقدم العصور، وما زالت - وسوف تبقى - من المعضلات عند غير المسلمين حتى يومنا هذا، وإن كان غير المسلمين يبحثونها بعنوان «الجبر والاختيار»، لأن مصطلح «القضاء والقدر» إسلامي محض.

فقد تساءل الفلاسفة ورجالات التشريع وفقهاء القوانين: هل الإنسان مُخَيَّرٌ أم مُسَيَّرٌ؟ .. واضطربت الأفهام في الإجابة فهناك من يزعم أن الإنسان ريشة لا وزن لها في مهب الريح، فهو محكوم بما ورثه عن أسلافه من خصائص لا حيلة له فيها، كما أنه محكوم بظروف بيئته فلا يقدر على الفكاك منها.

وذهب فريق ثانٍ إلى المبالغة في قدرات الإرادة الإنسانية، فالإنسان - عند هؤلاء - قادر على تجاوز موروثاته، وعلى «قهر» الطبيعة المحيطة به!.

* * *

الجبر الاستشراقي

جنح كثير من المستشرقين إلى تشويه عقيدة القضاء والقدر في الإسلام، فصوروها على أنها الجبرية، يستوي في ذلك المؤمن منهم بالجبر أصلاً أو بالاختيار.

وإذا كان جهل معظم المستشرقين بالدلالات اللغوية والشرعية الدقيقة للمصطلحات الإسلامية عنصراً مهماً وراء ذلك التشويه، فإن تخلف المسلمين وتواكلهم في العصر الحديث كان عاملاً لا يقل أهمية عن الأول، إذ أعطى المغرضين من المستشرقين مادة دسمة ليحاكموا الإسلام من خلال واقع المسلمين المتردي في هذا العصر، مع علمهم بأن المنهج العلمي في البحث يقتضي العكس تماماً، أو يوجب – في الأقل – التمييز بين عقيدة القدر في الإسلام، وفهم المسلمين لها، وهو فهمٌ يختلف – قرباً وبعداً من الأصل الصحيح – من عصر إلى عصر، بل إنك لتجد درجات ذلك التباين في العصر الواحد والمكان الواحد في بعض الأحايين.. على أن هؤلاء المستشرقين نشؤوا في بيئة لا تعرف سوى قولين متطرفين أحدهما الحرية المطلقة للإنسان، والأخرى هي الجبرية الكاملة، فتعاملوا مع الإسلام من خلال أفقهم الضيق، ناهيك عن أحقادهم وكثير من جهلهم بالعربية!.

ويأتي المفكر العنصري «أرنست رينان» في مقدمة المستشرقين الذين حرَّفوا الحقائق في هذا المجال، إذ زعم أن إيمان المسلمين بالغيبيات وبالقضاء والقدر يَحُولُ دون تشجيع العلم والفلسفة والبحث الحر!!. وقد رد عليه – في حينه – جمال الدين الأفغاني، مبيناً أن العكس هو الصحيح، فما تخلف المسلمون إلا يوم فهموا دينهم فهماً سقيماً.

ومن هؤلاء المنصِّر هانوتو الذي ردد الأكذوبة ذاتها، وقد فندها الشيخ محمد عبده في كتابه «الإسلام والنصرانية».

أما المستشرق الأمريكي المتعصب «إيرفنج» (وهو من المنصفين في رأي «المسلم الحزين»!) فقد زعم أن عقيدة القضاء والقدر ظهرت بعد موقعة «أحد»، وأن النبي ﷺ بعد استشهاد عمه حمزة قال: إن كل نفس لا تموت إلا في وقتها المحدد بقدر الله!.

[وقد تجاهل هذا الكذوب الحقود أن عشرات الآيات المكية التي نزلت قبل الهجرة إلى المدينة بسنوات، تؤكد عقيدة أن لكل أجلٍ كتابًا!!]

وإذ يقر إيرفنج بأن عقيدة القضاء والقدر، زودت جنود المسلمين في عهد الفتوحات بطاقة معنوية جعلتهم لا يُغْلَبون، فإنه يزعم أن المسلم بعد توقف الفتوحات مال إلى الإذعان لكل ما يصيبه على أنه بعض ما قدّر الله عليه، ما دام كل جهد وكل حكمة إنسانية عبثًا لا نفع له!!.

(انظر تلك الأكاذيب وتعرية د. محمد حسين هيكل لها في كتابه «حياة محمد» الفصل الختامي الثاني – ص ٥٤٧).

أما «وات» في كتابه «الجبر والاختيار» فيزعم أن الدولة الأموية هي التي شجعت عقيدة القضاء والقدر، ليتسنى لها سحب التأييد الشعبي من تحت أقدام خصومها الثائرين!.

* * *

أقدار بدوية!

أما الناقل غير الأمين «حسين أحمد أمين» فقد زعم أن القضاء والقدر نزعة نقلها الغازي البدوي إلى المجتمعات المفتوحة! فالبدوي - يضيف «الأمين» - لا سلطان له على الماء والكلأ، وقد يضل في الصحراء، أو يتعرض لهجوم من قطاع الطرق، لكن موقفًا كهذا لا نفهمه - يقول - عند ريفي مصري أو عراقي، يبذر الحَبَّ في فصل مطمئنًا إلى حصاد المحصول في فصل، آخذًا حيطته بإقامة السدود.. أما البدوي فلا يستطيع التنبؤ بما في الغد «فلا تقولن لشيء إني فاعل ذلك غداً إلا أن يشاء الله»، ويرى «الأمين» أن الاستبداد السياسي في ديار المسلمين هو مسؤول أيضاً - بالإضافة إلى الغازي البدوي - عن انتشار نزعة القضاء والقدر!.

* * *

وإذ نصرف النظر عن قلة الأدب في تصوير الفاتحين المسلمين، على أنهم غزاة من البدو، فإننا نقول - باختصار شديد -:

١ - إن القضاء والقدر عقيدة قرآنية - كما سنرى بعد قليل - فهل القرآن عند «المسلم المستنير» نتاج نزعة بدوية أيضًا؟ - تعالى الله عما يقول الظالمون - ناهيك عن الأحاديث النبوية وعشرات الوقائع في عهد الخلفاء الراشدين، وجميعها تؤكد أن القضاء والقدر جزء أساسي من عقيدة الإسلام، يكفر منكره!.

٢ - إن فلاسفة الإغريق - وليس البدو الغزاة - هم أول من نادى بالحتمية!!.

٣ - إذا كانت عقيدة القضاء والقدر حسب فهمه المنحرف تعني السلبية،

فكيف تمكن عدد قليل من البدو «السلبيين المتخلفين» من فتح بلدان زراعية «تستطيع التنبؤ بما في الغد» وهي أكثر عدداً وعدة، وأبعد شوطًا في ميادين المدنية؟ وقد حدث ذلك كله في بضع عقود من السنين، دَافَعَ فيها عن البلدان المتمدنة المفتوحة العملاقان في ذلك الزمان: الروم والفرس؟!.

٤ ـ نزعة الاقتصار على اليوم سادت لدى المترفين وليست عند البدو. قالها امرؤ القيس ملك كندة الموالي للروم «اليوم خمر وغداً أمر»، وقالها عمر الخيام المتهتك- كما ترجمه أحمد رامي -:

لا تشغل البال بماضي الزمان ولا بآتي العيش قبل الأوان

واغنم من الحاضر لذّاته فليس في طبع الليالي الأمان

وهي أصلاً نظرة يونانية عرفت لدى الأبيقوريين!.

٥ ـ إذا كان الاعتقاد بالقضاء والقدر رديف الاستبداد السياسي، فلماذا خلت الصحراء العربية – حتى في الجاهلية من تاليه ملوكها، في حين ظهر هذا النمط من الشرك في بلاد الأنهار وَأَخْذِ الحيطة بالسدود؟!!.

٦ ـ إن من الجهل – إن لم يكن من التجاهل – أن يستدل شخص يسمي نفسه «مفكرًا» و«إسلاميًا» و«مستنيراً»، أن يستدل لفهمه المنحرف بقوله – تعالى – مخاطبًا نبيه ﷺ.

﴿ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّا أَن يَشَاءَ .. ﴿٢٤﴾ ﴾ (١).

(١) سورة الكهف الآيتان ٢٣، ٢٤.

فليس يفهم من هذا النص القاطع أنه دلالة على عدم الاكتراث بالمستقبل إلا جاهل يقحم نفسه في زمرة العلماء، أو متجاهل ماكر يحرّف الكلم عن مواضعه .. فالنهي في الآية عن نسيان الاعتماد على مشيئة الله – سبحانه –، وليس النهي عن التفكير في الغد .. وعكس تخريفاته هو الصحيح، فالقيد «إلا أن يشاء الله» هو الذي يؤكد إقرار النبي – وكل مسلم – على التخطيط للغد .. ولو خَلَت الآية من هذا الاستثناء لكانت «ولا تقولن لشيء إني فاعل ذلك غداً»، وحينذاك تصبح زجراً عن التفكير في المستقبل!.

ناهيك عن تخطيط يوسف (عليه السلام) لسبع سنوات – لا ليوم واحد فحسب –، فقد أوَّل رؤيا الملك بأن هناك سنوات مَحْلٍ وجدبٍ قادمة، فأمرهم بأن يحتفظوا بالقمح في سنبله – كل ما يزيد عن حاجاتهم الاستهلاكية الرشيدة – وذلك كاحتياط استراتيجي لم تأخذ به الدول الحديثة إلا في القرن الحالي بصورة منهجية. قال – تعالى – على لسان يوسف: **﴿قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ إِلاَّ قَلِيلاً مِّمَّا تَأْكُلُونَ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ يَأْتِي مِن بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلاَّ قَلِيلاً مِّمَّا تُحْصِنُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾**(١).

٧ ـ ليس هناك أدنى تعارض في ضميري ولا في ضمير أي مسلم يؤمن بما ورد في الكتاب والسنة، بين التوكل على الله والتخطيط للغد، فذلك ما فعله الرسول ﷺ في سنته القولية والعملية وسار عليه الصحابة والتابعون من بعده.

(١) سورة يوسف: الآيتان ٤٧، ٤٨.

والحقيقة أن ما يدعونا إليه «الحزبين» هو التخطيط للغد، مع التخلي عن التوكل على الله – عز وجل–.

نحن نؤمن بالأسباب فهي – أيضاً – من قدر الله الذي سخر لنا ما في السموات والأرض، لا ننكرها كجهلة المتصوفة، ولا نعبدها كعبيد الغرب!.

وأتحدى «الأمين» في زعمه أن التخطيط البشري – الفردي والجماعي – يتحقق بنسبة ١٠٠٪!! أفلا أخطط وأعمل بالأسباب بعد الاتكال على الله انطلاقًا من المقولة النبوية الخالدة لصاحب الناقة: «اعقلها وتوكل»؟ إن «الحزبين» حر في أن يعقل ناقته دون أن يتوكل، لكن أن يزعم أن هذا هو الإسلام، فإنه ردٌّ لآيات مُحْكَمَة وأحاديث صحيحة ثابتة، ومن يصر على رد القطعيات يخرج من حظيرة الإسلام، إلا إذا كان كالبهاء يعد نفسه نبيًا جاء ينسخ الإسلام!!.

٨ ـ أليس من المثير للضحك – وشر المصيبة ما يضحك – أن هذا المتهجم على القضاء والقدر وهي عقيدة نقلت إلينا بالتواتر وبالأدلة القطعية، يؤمن في الوقت نفسه بجبرية لكنها ليست من الدين في شيء وليست من الحق والمنطق في شيء: إنها «الحتمية التاريخية»!!! التي جاء بها ماركس، أبو الشيوعية التي أفلست في أقل من قرن من الزمان، وما كان لها أن تستمر القرن المذكور لولا البطش والإرهاب والفتك بالملايين من الأبرياء..

* * *

أبوبكر .. وأبو جعفر

إن الآيات والأحاديث التي تقرر عقيدة القضاء والقدر لا تبيح الظلم أبداً.

وقد حكم النبي ﷺ المؤمن بقضاء الله وقدره، فكان حكمه أعدل حكم تعرفه البشرية من قبل ومن بعد، وهو ما ينسف أكذوبة الربط المتعسف بين الإيمان بالقدر والقهر السياسي.. ويكفينا أنموذجان هاهنا..

فلقد استهل أبوبكر الصديق – المؤمن بقدر الله وبقضائه – استهل خلافته بخطبة شهيرة قال فيها: «أما بعد، أيها الناس فإني قد وليت عليكم ولست بخيركم فإن أحسنت فأعينوني وإن أسأت فقوّموني. الصدق أمانة، والكذب خيانة، والضعيف فيكم قويٌّ عندي حتى أريح عليه حقه إن شاء الله. والقويُّ فيكم ضعيف عندي حتى آخذ الحق منه إن شاء الله...»!! إنها أنموذج رائع على التقاء الإيمان بالقضاء والقدر مع العدل والاستقامة ومحاسبة الرعية للحاكمين!.

في حين قال أبو جعفر المنصور بعد تسنمه ذروة الحكم: «أيها الناس إنما أنا سلطان الله في أرضه، أسوسكم بتوفيقه وتأييده، وحارسُه على ماله أعمل فيه بمشيئته وأعطيه بإذنه، فقد جعلني الله عليه قفلاً، إن شاء أن يفتحني فتحني لإعطائكم وقَسْم أرزاقكم، وإن شاء أن يقفلني عليها أقفلني....».

فأبو جعفر – هنا – يحرّف العقيدة الصحيحة، إذ يريد أن يدثر استبداده بالقدر، متجاهلاً أوامر الشرع فيما يخص ممارسة السلطة والتصرف بمال الأمة.

من مقارنة الأنموذجين نخلص إلى أن المسلم غير معصوم من الخطيئة ولا من الخطأ، لكن الإسلام معصوم بحفظ الله – عز وجل – إياه، بحفظ مصادره.

وليس أدل على أن موقف أبي جعفر ظل نشازًا مرفوضًا، من أن علماء الأمة لم يأخذوا بموقفه الخاطئ وإنما آخذوه عليه!! علمًا بأن العصر العباسي شهد ذروة التناحر بين الفرق، لكن الجبريين ظلوا قلة.

وهذا يشهد على صيانة مصدري الإسلام (القرآن والسنة) من التحريف، كما يدل على الأثر السيئ للابتداع في الدين، سواء أكان ذلك الابتداع بإضافة الغريب إلى الدين، أو ببتر أجزاء من الدين.. فعدم ابتداع الصحابة أي زيادة أو نقصان فيما يتصل بالقضاء والقدر، جعلهم قادة فاتحين، أما الذين ابتدعوا فيها في العصور التالية فقد قعدوا عن الفتح وانشغلوا ببحوث سفسطائية كانت على حساب مستقبل الأمة، من حيث الإخلاد إلى الأرض، والاستكانة للظلم وللغزو الخارجي، ومن حيث إعلاء صوت الثرثرة على حساب المنهج التجريبي الذي كنا أول من وضع نواته الصحيحة، لكننا لم نتابع جهودنا لتطويره، فقد كان ضحية الابتداع والانشغال بالبدع، ولذلك طوّره الغرب وسيطر به على العالم في القرون الأخيرة.

وكل ما سلف يدحض ترويج «الأمين» لضرورة الابتداع في الدين!.

* * *

بقي أن نشير إلى ما روّج له المستشرقون وكثير من تابعيهم المتغربين، من أن الأمويين دعموا عقيدة القضاء والقدر، علمًا بأن بعض الأمويين ناصروا عقيدة الجبر وليس معتقد القضاء والقدر – وسنرى البون الشاسع بينهما –. ومع ذلك فإن التعميم والإطلاق لغة الجهل والكذب، إذ أن بني أمية الذين شجع بعضهم عقيدة الجبر، هم الذين قتلوا رأس الجبريين في عصرهم – الجهم بن صفوان –!! (أحمد أمين – ضحى الإسلام ٣ / ٨١).. بل إن بعض الخلفاء الأمويين كانوا من المعتزلة الذين ينكرون القضاء والقدر، مثل الوليد بن يزيد الذي خرج مع عصبة من المعتزلة

على يزيد بن الوليد فقتلوه وأحلوا الوليد هذا محله (ضحى الإسلام ٣ / ٨٢).

وقبل أن أقدم عقيدة القضاء والقدر في وجهها الصحيح الوارد في القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة، وتطبيقات النبي ﷺ والصحابة لها، أشير إلى أن مستشرقًا غير مسلم كان أكثر أمانة وصدقًا وإنصافاً من صاحبنا، في حديثه عن القضاء والقدر، فلنستمع إلى « كانتول سميث » إذ يقول :

« .... والتاريخ في نظر المسلم هو سجل المحاولة البشرية الدائمة لتحقيق ملكوت الله في الأرض، ومن ثم فكل عمل وكل شعور – فردياً كان أو جماعياً – ذو أهمية بالغة، لأن الحاضر نتيجة الماضي، والمستقبل متوقف على الحاضر. فالمفهوم الإسلامي واضح الإيجابية، فبينما غير المسلم يضحي بنفسه لأنه لا يريد أن تمر عجلة التاريخ الخاطئة، وهو حي وسامحٌ لها بالمرور، فهو يقف في طريقها حتى تدوسه وتقتله، ويكون ذلك أغلى قربان يتقدم به إلى الله، فإن المسلم حين يضحي بنفسه، ففي حسه أن هناك نظاماً إلهياً يراد أن يطبق في واقع الأرض، وفي حسه – وهو يضحي – أنه يدفع عجلة هذا النظام خطوة إلى الأمام »!! (أنور الجندي – سموم الاستشراق والمستشرقين – ص ٢٩).

* * *

القدر في الكتاب والسنة

إن أكبر خطأ يقع فيه بعض الباحثين هو اجتزاء الأدلة الشرعية دون النظر فيها بصورة شمولية، لمراعاة العام والخاص، والمطلق والمقيد والمجمل والمفصل..

فإذا كان النظر في الأدلة شاملاً ودقيقًا، فإنه يمكن أن يتوصل إلى أن عقيدة القضاء والقدر في الإسلام، تتكون من:

١ ـ لا مشيئة مطلقة في الكون سوى مشيئة خالقه – سبحانه –.

٢ ـ أن الإنسان مخيَّرٌ في أشياء ومجبر في أشياء، وأن الحساب يقتصر على الأولى دون الثانية.

٣ ـ أن عِلْمَ الله – سبحانه – بما يكون من الإنسان، ليس إجباراً له.

٤ ـ أن العمل بالأسباب مع التوكل هو الموقف الإسلامي الصحيح، دون من يعتمد على الأسباب جاحداً المتصرف فيها، ودون من يزعم التوكل ويتجاهل العمل بالأسباب.

* * *

فلننظر الآن في الأدلة على كل نقطة من النقاط الأربع:

مشيئة الله:

الله – عز وجل – هو خالق كل شيء، وهو – سبحانه – الحاكم المطلق دون أي شريك في الكون بما فيه من مخلوقات مختلفة..

قال – تعالى – ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾﴾ (١).

وقال – سبحانه –: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾﴾ (٢).

ومشيئة الخالق نوعان: مشيئة كونية، ومشيئة شرعية.

المشيئة الكونية تلزم العاقل بتوحيد الربوبية، فلا خالق ولا متصرف في الكون وما فيه تصرفًا مطلقًا بدون حدود سوى الله – سبحانه – وهذا النوع من التوحيد أقر به حتى كفار قريش (*)، قال – تعالى –: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٦١﴾﴾ (٣).

وقال – عز من قائل –: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِن بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٣﴾﴾ (٤).

وقال: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٨٧﴾﴾ (٥).

وقد شاء رب العالمين – سبحانه وتعالى – أن يضع في الكون والأنفس سننًا،

---

(١) سورة يس: الآيتان ٨٢، ٨٣.

(٢) سورة البقرة: الآية ٢٠.

(*) أي أنهم كانوا أقل شراً من «الأمين» الذي يدافع عن اعتقاد الكندي المأخوذ عن أرسطو من أن الله – سبحانه – خلق الكون وتركه دون تدخل (تعالى الله عما يقول الظالمون).

(٣) سورة العنكبوت: الآية ٦١.

(٤) سورة العنكبوت: الآية ٦٣.

(٥) سورة الزخرف: الآية ٨٧.

فقال: ﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ (٤٩) ﴾ (١).

وقال - تعالى -: ﴿إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَىٰ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ (٩٥) فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (٩٦) وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٩٧) وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ (٩٨) وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِنْ طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ انْظُرُوا إِلَىٰ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكُمْ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٩٩) ﴾ (٢).

إن آيات الله في الكون تدعو الإنسان العاقل إلى الإيمان بالله وحده لا شريك له، فضلاً عن كونها مسخَّرة لخدمة البشر- بصرف النظر عن الإيمان والكفر!!.

قال - تعالى - : ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ (٥٤) ﴾ (٣).

---

(١) سورة القمر: الآية ٤٩.
(٢) سورة الأنعام :الآيات ٩٥ - ٩٩.
(٣) سورة الأعراف : الآية ٥٤.

وقال – تبارك وتعالى – ﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٣﴾ ﴾ (١).

(انظر أيضاً للغرض نفسه: الرعد ٢، ٤ – الحجر ٢٢ – إبراهيم ٣٢، ٣٣ – النحل ١٢ – ١٦، ٧٨، ٧٩ – الإسراء ١٢ – الأنبياء ٣٠ – يس ٤٠ – الرحمن ٥).

والله – عز وجل – قادر على خرق هذه السنن التي وضعها، لمعجزة يؤيد بها أنبياءه، وليس ذلك إلا لله.. والعقل البشري يدرك أن من يضع القانون هو الذي يستثني منه، فذلك هو واقع الإنسانية فالقانون الذي يسنه حاكم فرد ينقضه الحاكم الفرد، والقانون الذي يشرعه برلمان ينقضه البرلمان نفسه – ولله المثل الأعلى – .. لكن الأصل هو سريان السنن التي شاء الله أن تكون، إلى أن يأتي يوم القيامة ﴿فَإِذَا بَرِقَ الْبَصَرُ ﴿٧﴾ وَخَسَفَ الْقَمَرُ ﴿٨﴾ وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ ﴿٩﴾ يَقُولُ الإِنسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفَرُّ ﴿١٠﴾ ﴾ (٢).

أما مشيئة التشريع التي تعني توحيد الله في ألوهيته، فلا يعبد المؤمن سوى الله ولا يطيع أحداً طاعةً مطلقة إلا الله، فهي التي أنكرها مشركو قريش.

إن الله رب العالمين لكنه إله المؤمنين، فالسنن تعمل برغم البشر وإن كان في وسعهم استثمارها، وهذا الاستثمار متاح لمن يعمل سواء أكان مؤمناً أم كافراً، أما توحيد الألوهية فهو باختيار الإنسان، ولذلك فهو موضع الثواب والعقاب.

والمؤمن مطالَبٌ بعمارة الكون مثلما هو مطالَبٌ بطاعة الله وفق الرسالة التي بلغته.. فإذا قصر في إحداهما فالخطأ منه وليس من الرسالة!.

(١) سورة الجاثية: الآية ١٣.
(٢) سورة القيامة: الآيات ٧ – ١٠.

مكانة الإنسان وحدوده:

الإنسان – في الإسلام – هو خليفة الله في الأرض، قال – تعالى –: ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً.. ﴿٣٠﴾ ﴾(١).

ولذلك فهو مخلوق مكرَّم ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً ﴿٧٠﴾ ﴾(٢)

وقد شاء الله – عز وجل – أن يخلق الإنسان ويجعله قادراً على الاختيار، فما هو كالملائكة الذين لا يعصون الله ويفعلون ما يؤمرون، وما هو كالحيوان الذي تقوده غريزته فلا عقل له يوازن به بين الحق والباطل.

قال – تعالى –: ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴿٨﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا ﴿١٠﴾ ﴾(٣).

وقال – سبحانه –: ﴿ أَلَمْ نَجْعَل لَّهُ عَيْنَيْنِ ﴿٨﴾ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ﴿٩﴾ وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ ﴿١٠﴾ ﴾(٤). وأمر نبيه: ﴿ وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ ﴿٢٩﴾ ﴾(٥).

ولتمييز الحق من الباطل بدقة، بعث الله – عز وجل – الأنبياء والرسل مبشرين ومنذرين، يبلغون البشر منهج الله في مهمة خلافته في الأرض.

---

(١) سورة البقرة الآية ٣٠.
(٢) سورة الإسراء الآية ٧٠.
(٣) سورة الشمس الآيات ٧ – ١٠.
(٤) سورة البلد الآيات ٨ – ١٠.
(٥) سورة الكهف الآية ٢٩.

وقد قلنا: إن الله جعل الإنسان قادراً على الاختيار، ولم نقل: جعله مختاراً فحسب، لأن في الإنسان جانباً لا يد له فيه.. فالمرء لا يختار أبويه ولا مكان ولادته ولا موعدها، كما يرث الإنسان لون بشرته وعينيه وطول جسمه.. وقلب الإنسان يعمل بدون أي إرادة لحامله، بل إنه يواصل مهمته والإنسان نائم.

وكذلك أجهزة الهضم والأعصاب ... إلخ، ومثلها الحركات اللا إرادية والانعكاسية كحركة رموش العيون.. ولذلك فإن هذه الأمور ليست موضع تفاضل ولا محل حساب.

فلا ثواب ولا عقاب إلا على ما يختاره الإنسان بكامل قدرته على الاختيار ﴿ لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ .. ﴿٢٨٦﴾ ﴾[1] .. فلا تكليف إلا لعاقل تجاوز مرحلة الطفولة وفي حدود استطاعته ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ ﴿١٦﴾ ﴾[2]. لأن الجنون وعدم نضج العقل (قبل البلوغ) وأي مانع خارجي كلها عوامل تحد من قدرة المرء على الاختيار الحر.. ولذلك قال المصطفى ﷺ في حديث روته عائشة أم المؤمنين – رضي الله عنها – «رُفِع القلم عن ثلاث: عن النائم حتى يستيقظ وعن الصبي حتى يحتلم وعن المجنون حتى يعقل» [أخرجه أحمد].

وقال – تعالى – ﴿ربَّنَا لا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا .. ﴿٢٨٦﴾ ﴾[3].

---

(١) سورة البقرة: الآية ٢٨٦.
(٢) سورة التغابن: الآية ١٦.
(٣) سورة البقرة: الآية ٢٨٦.

وفي حديث نبوي جاء – ما معناه – رُفِعَ عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه.. ولذلك فإن الحج – مثلاً – فرض على من استطاع إليه سبيلاً، كما رُخّص للمسافر والمريض أن يفطرا في رمضان على أن يقضيا ما أفطراه بعد زوال ظرفيهما..

المهم أن الاختيار الإنساني الحر الذي لا يعترضه أي عائق، هو مناط التكليف: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ۝٨﴾[١] ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ۝٤٦﴾[٢].

التيسير حسب الاختيار

إن الله – عز وجل – الذي لا تخفى عليه خافية، ويعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور، يُعين عبده الذي يختار سبيل الحق، بحسب درجة صدق ذلك العبد في توجهه، كما يمد – سبحانه – للإنسان الظالم الجاحد المتبع لهواه، يمد له حبل الغواية.. قال تعالى ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ ۝٨ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ ۝٩ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ ۝١٠﴾[٣].

وعليه فإن الله عز وجل: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ۝٦﴾[٤].

و ﴿لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ ۝٣﴾[٥].

---

(١) سورة الزلزلة: الآيتان ٧، ٨.
(٢) سورة فصلت: الآية ٤٦.
(٣) سورة الليل: الآيات ٥ – ١٠.
(٤) سورة المنافقون: الآية ٦.
(٥) سورة الزمر: الآية ٣.

و﴿لا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴿٢٨﴾﴾ (١).

و﴿لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٠﴾﴾ (٢).

و﴿لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴿٣٧﴾ ﴾ (٣).

لأن الأصل فيهم أنهم اختاروا الشرك والضلال فولاهم الله ما تولوا ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ ﴿٥﴾﴾ (٤).

فالتيسير من الله بحسب اختيار العبد:

﴿إِنَّ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ لا يَهْدِيهِمُ ﴿١٠٤﴾﴾ (٥).

ولذلك فإن الله – عز وجل – طبع على قلوب الكافرين بكفرهم:

﴿بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلا يُؤْمِنُونَ إِلاَّ قَلِيلاً ﴿١٥٥﴾﴾ (٦).

فتلك نتيجة كفرهم وليس العكس، فالله أحكم الحاكمين لا يطبع على قلب إنسان لم يختر الكفر، فذلك ظلم يتنزه عنه عقلاء البشر فكيف بخالق السماوات والأرضين؟ وتأكد هذا المعنى مراراً:

﴿كَذَلِكَ نَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ ﴿٧٤﴾ ﴾ (٧).

﴿كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ الْكَافِرِينَ ﴿١٠١﴾ ﴾ (٨).

---

(١) سورة غافر: الآية ٢٨.
(٢) سورة الأحقاف: الآية ١٠.
(٣) سورة التوبة: الآية ٣٧.
(٤) سورة الصف: الآية ٥.
(٥) سورة النحل: الآية ١٠٤.
(٦) سورة النساء: الآية ١٥٥.
(٧) سورة يونس: الآية ٧٤.
(٨) سورة الأعراف: الآية ١٠١.

﴿كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴿٣٥﴾﴾ (١).

﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٣﴾ ﴾ (٢).

﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِن يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ ﴿١٤٦﴾ ﴾ (٣).

وفي المقابل، فـ﴿اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾﴾ (٤).

﴿وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى .. ﴿٧٦﴾﴾ (٥).

﴿وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ ﴿٢٧﴾﴾ (٦).

﴿ وَمَن يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ ﴿١١﴾ ﴾ (٧).

﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٦٩﴾﴾ (٨).

لَبْس المجتزئين:

إن الذي يجتزئ الدليل دون إحاطة ببقية الأدلة، يجد نفسه في تيه.. فهو يتلو قول الله – سبحانه – مخاطبًا نبيه محمداً ﷺ:

﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ ﴿٥٦﴾﴾ (٩).

---

(١) سورة غافر: الآية ٣٥.
(٢) سورة المنافقون: الآية ٣.
(٣) سورة الأعراف: الآية ١٤٦.
(٤) سورة الشورى: الآية ١٣.
(٥) سورة مريم: الآية ٧٦.
(٦) سورة الرعد: الآية ٢٧.
(٧) سورة التغابن: الآية ١١.
(٨) سورة العنكبوت: الآية ٦٩.
(٩) سورة القصص: الآية ٥٦.

ويتلو قوله – تعالى – مخاطباً نبيه أيضاً: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾﴾[١].

فيتوهم أن في الأمر تناقضاً – تعالى الله عن ذلك –، ولو تدبر ونظر في الأدلة كلها وفي سيرة الرسول ﷺ، لعلم أن الهداية الأولى التي لا يملكها النبي – ولا أي مخلوق – وهي هداية التيسيرلأنها اختصاص إلهي صرف، فالله – سبحانه – هو وحده الذي يعلم ما في القلوب، وييسر للناس بحسب ما يعلمه من سرائرهم وتوجهاتهم نحو الحق أو نحو الباطل.

أما الهداية في الآية الثانية فهي من مهمة الرسل الكرام الذين يبلغون رسالات ربهم، فهي بمعنى البيان وإيضاح سبيل الخير من سبيل الشر، وهي بعد ذلك من واجب العلماء لأنهم ورثة الأنبياء يبلغون ما علموه من الرسالة .. والهداية بهذا المعنى وردت في آيات أخرى، كقوله – تعالى – عن الإنسان: ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴿٣﴾﴾[٢]، وقوله – سبحانه –: ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ ﴿١٠﴾﴾[٣].

وقد اضطرب المشركون في فهم هذه القضية، فتذرعوا بالقدر لشركهم وشرك آبائهم .. وقد صور القرآن ذلك في قوله – تعالى –: ﴿سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا .. ﴿١٤٨﴾ قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٤٩﴾﴾[٤].

---

(١) سورة الشورى: الآية ٥٢.
(٢) سورة الإنسان: الآية ٣.
(٣) سورة البلد: الآية ١٠.
(٤) سورة الأنعام :الآيات ١٤٨ – ١٤٩.

فالحقيقة أنه لو شاء الله أن يجعل البشر كالملائكة مؤمنين طائعين لجعلهم ولا راد لمشيئته- سبحانه -، لكن «لو» تؤكد أن الله لم يشأ ذلك، وإنما شاء أن يخلقهم قادرين على الاختيار ولذلك سيحاسبهم ويجزيهم وفقًا لاختيارهم.

أما عِلْمُ الله المسبق بما يختاره العبد فليس فيه أدنى شبهة للجبر.. فإن البشر - على محدودية طاقاتهم - توصلوا بموجب سنن الله الكونية إلى معرفة حالة الطقس في ساعات أو أيام مقبلة، فهل يكون علمهم هذا - ولله المثل الأعلى - إكراهاً للشمس أو للريح..؟ وقل مثل ذلك في علماء الاقتصاد الذين يتوقعون - بنسبة عالية من الدقة - ركوداً اقتصادياً في وقت معين... ولذلك فإن من الحماقة ما فعله «الأمين» حين حاول التشكيك في أن سورة «المسد» مكية (انظر فصل: أبو لهب الإمبريالي،، في الجزء الأول من هذا الكتاب).. فقد توهم أن نزول السورة التي تنص على هلاك أبي لهب في الآخرة، من قبل أن يموت فيها دلالة على الجبر!! وهذا وهم، بل هي معجزة للنبي ﷺ، لأنه لا يعلم حقيقة ما في القلوب وما الذي سيختاره العبد إلا رب العالمين، الذي لا يعزب عنه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء، ولا أدنى من ذلك ولا أكبر.

فهو - سبحانه - عالِمٌ بأن أبا لهب لن يختار الإيمان ولو لإبطال نبوة ابن أخيه، وهذا ليس جبراً إلا في العقول غير السوية التي تسير وراء الأهواء.

إرادة الله ورضاه:

قال غيلان - المعتزلي - لأحد العلماء: أنشدك الله، أترى الله يحب أن يُعْصى؟ فقال له ربيعة: أنشدك الله أترى الله يُعْصى قسراً؟ فكأن ربيعة ألقم غيلان حجراً.

فقد ضل المعتزلة لأنهم – كما يقول أحمد أمين والد صاحبنا – أفرطوا في قياس الغائب على الشاهد، وفي قياس العدل الإلهي على أوضاع البشر.

فهم قد خلطوا بين أمرين، أحدهما مشيئة الله، والثاني شريعة الله .. أو بين ما أراده الله، وبين ما يحبه – سبحانه– أو يبغضه. فالكافر لا يكفر برغم الله – تعالى الله عن ذلك – لأن المولى – سبحانه – قادر على أن يخلقه مؤمناً دون أن يترك له أي قدرة على اختيار الكفر.. لكن الله شاء أن يخلق البشر أحراراً مختارين.. فالله – سبحانه – شاء أن يعطي بني آدم القدرة على الاختيار بين الإيمان والكفر، لكنه لا يحب الكفر ولا الفسوق ولا العصيان، ولذلك بعث الأنبياء ليبلغوا العباد ويقيموا الحجة عليهم بتبيان ما يرضي الله وما يغضبه.

* * *

الأسباب بين إفراط وتفريط:

ذكرتُ من قبل أن الله – عز وجل – أودع مخلوقاته سننًا لا تتخلف إلا في المعجزات (كتحول النار إلى برد وسلام على نبيه إبراهيم، وكتحويل البحر إلى يابسة لموسى والمؤمنين معه لما فروا من فرعون، وكالإسراء بمحمد ﷺ من مكة إلى القدس في ليلة واحدة، قبل أن تخترع السيارة والطائرة...، وكنطق عيسى في المهد وإحيائه الموتى بإذن الله ...)، إن الأسباب جزء من قضاء الله وقدره، فالمسلم لا ينكرها فإنكارها شأن من يعطلون عقولهم عن فهم الكتاب والسنة مثل جهلة المتصوفة، ومن يعطلونها عن فهم كتاب الله الكوني كفلاسفة الوهم الذين يزعمون أن العالم الخارجي ليس سوى وهم أنتجه خداع الحواس البشرية (مثل باركلي وهيوم وفلاسفة العدمية في القرن التاسع عشر).

لكن المسلم لا يغلو في الأسباب كما فعل النمرود وكما يفعل كثير من مفكري الغرب الماديين الذين جعلوا الأسباب خالقةً مع أنها مخلوقة! لقد أراد النمرود أن يلبس على الناس إيمانهم، فزعم أنه يحيي ويميت وجاء بشخص فأمر بقتله ونفذ الحكم فيه، ثم جاء بآخر فأمر بقتله ثم أوقف تنفيذ الحكم.. لكن أبا الأنبياء إبراهيم (عليه الصلاة والسلام) لم يشأ أن يدخل معه في جدل عقيم برغم أن الحجة القاطعة مع إبراهيم، ولكيلا يظل تحرير القضية موضع النزاع غائمًا في بعض العقول، فقد جابهه إبراهيم (عليه السلام) بحجة لا مجال للتلبيس فيها..

قال – تعالى –: **﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ ﴿٢٥٨﴾﴾** (١).

---

(١) سورة البقرة: الآية ٢٥٨.

والمسلم يأخذ بالأسباب مع التوكل على الله خالقها، مصداقًا للتوجيه النبوي الكريم لصاحب الناقة: «اعقلها وتوكل».

ومن يتدبر قصة ذي القرنين في سورة الكهف، يدرك أن الموقف الشرعي هو استعمال جميع الأسباب المتاحة مع التوكل على الله.. قال – تعالى – عن ذي القرنين: ﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا ﴿٨٤﴾ فَأَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٥﴾﴾[1].

ولما طلب منه القوم الذين وجدهم بين السدين، أن يقيم سدًا بينهم وبين يأجوج ومأجوج المفسدين في الأرض، قال: ﴿قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴿٩٥﴾ آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ حَتَّىٰ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انفُخُوا حَتَّىٰ إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا ﴿٩٦﴾ فَمَا اسْطَاعُوا أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا ﴿٩٧﴾ قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا ﴿٩٨﴾﴾[2].

فهذا العبد الصالح لم يقل لهم: توكلوا على الله وسينشأ السد من تلقاء نفسه، وإنما طلب منهم قواطع الحديد حتى جعل الضلعين متساويين ثم أساله بالنار وأهال عليه النحاس المذاب.. كما أنه لم يفعل هذه الأسباب متجاهلاً ربه الذي سخرها له ومنحه القدرة على تنفيذها.

وقد أحسن الناظم – من حيث صِدْق الفهم لا من حيث الفن والتصوير – إذ قال:

ألم تر أن الله قال لمريمٍ ... وهزي إليك الجذع يساقطِ الرُّطَبُ
ولو شاء أن تجنيه من غير هزها ... جَنَتْه، ولكن كل شيء له سببُ

(١) سورة الكهف الآيتان ٨٤، ٨٥.
(٢) سورة الكهف الآيات ٩٥ – ٩٨.

ومثل ذلك أن الله – سبحانه – جعل الملائكة تقاتل إلى جانب المسلمين، ولم يجعلها تقاتل وحدها، لأنه لابد من الأسباب.

قال – تعالى –: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ ﴿٦٠﴾﴾ (١).

وقال – سبحانه – لنبيه: ﴿هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾﴾ (٢).

وتأييد الله – تعالى – مشروط بعمل المؤمنين وفقًا لمنهجه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴿٧﴾﴾ (٣).

وكذلك أي تغيير: ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴿١١﴾﴾ (٤).

الأسباب – إذًا – لازمة وعدم الأخذ بها تهاون ومخالفة، لكن الشطط هو تجاهل موجدها ومسخِّرها، وكذلك المبالغة فيها.. ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿٣٤﴾﴾ (٥).

فالإنسان مهما خطط ومهما برمج، لا يعلم ما في الغد علم اليقين، إنما هو الظن الراجح، وهذا لا إثم فيه ولا حرج إذا قرن الإنسان تحققه بإذن الله.. فليس التخطيط للغد – كما زعم «الأمين» – معارضًا للإيمان بالقضاء والقدر، ولا للتوكل على

(١) سورة الأنفال: الآية ٦٠.
(٢) سورة الأنفال: الآية ٦٢.
(٣) سورة محمد: الآية ٧.
(٤) سورة الرعد: الآية ١١.
(٥) سورة لقمان: الآية ٣٤.

الله.. وإلا فليبلغنا «الأمين» عن موعد موته هو!!.

في السُّنَّة:

روى أبو هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «**ما أنزل الله من داء إلا أنزل له دواء**» [أخرجه البخاري].

وعن جابر بن عبدالله – رضي الله عنهما – أن رسول الله ﷺ قال: «**إن لكل داء دواءً، فإذا أُصِيبَ دواءُ الداء بَرَأ بإذن الله**» [أخرجه مسلم].

فالأمر بالتداوي صريح وأنه سبب للعلاج، لكن الطبيب قد يخطئ، أما إذا كان تشخيصه صحيحاً وعلاجه صائبًا، فإن الداء يبرأ بإذن الله.

بل إن الإسلام يأمر بالوقاية من المرض لا بانتظاره للعلاج منه فيما بعد، قال إبراهيم بن سعد بن أبي وقاص: سمعت أسامة يحدث سعداً عن النبي ﷺ قال: «**إذا سمعتم بالطاعون بأرض فلا تدخلوها وإذا وقع بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا منها**» [أخرجه البخاري ومسلم ومالك في الموطأ والترمذي].

ذلك لأن خروج الإنسان من أرض حل بها هذا الوباء، يعني أن ينقله إلى من لم يصابوا به، ودخوله على بلد حل به الطاعون يعني تعريض نفسه إلى احتمال الإصابة به..

كما ورد في حديث آخر، قوله ﷺ: «**فِرَّ من المجذوم كما تفر من الأسد**».

وقال أيضاً: « **لا يُوردُ ممرضٌ على مُصحٍّ** ».

والأسباب من قدر الله، فهذا أبو خزامة يسأل النبي ﷺ: **أرأيت رقى نسترقيها ودواءً نتداوى به وتقاة نتقيها: هل ترد من قدر الله شيئًا، فقال ﷺ: «هي من قدر الله»!!.**

ولأن تلك الأسباب مخلوقة فينبغي العمل بها دون الاعتقاد بأنها تعمل بنفسها خارج مشيئة الله الذي أوجدها، ولذلك قال ﷺ: « **لا عدوى ولا صَفَرَ ولا هامة فقال أعرابي: يا رسول الله، فما بال إبل تكون في الرمل كأنها الظباء فيأتي البعير الأجرب فيدخل فيها فَيُجْرِبُها؟ فقال: فمن أعدى الأول** ».

فالنبي (عليه الصلاة والسلام) ينكر أن تكون العدوى على غرار قناعة العرب في جاهليتهم بالتطير من أشياء كثيرة، كأنها خلقت نفسها، ولذلك أعاد السائل إلى إصابة الإبل بالجرب في المرة الأولى قبل العدوى. ودليل هذا التقييد أمره ﷺ بالفرار من المجذوم، وبعدم ورود المريض على الصحيح، وبعدم دخول بلد الطاعون لمن هو خارجه، وبعدم الخروج منها لمن كان داخله.. كما أن على المسلم أن يفوض أمره إلى الله إن لم يتمكن من الأسباب، أو إن فعلها فلم تؤد الغرض، **فإبراهيم (عليه الصلاة والسلام) لما ألقي في النار قال: حسبنا الله ونعم الوكيل** [من حديث لابن عباس رواه البخاري].

الدنيا والآخرة:

من الأوهام المبتدعة التي طرأت على المسلمين – لا على الإسلام لأن مصدريه محفوظان بحفظ الله –، إهمال الدنيا بحجة التوكل أو بحجة العمل للآخرة فحسب.. وهذا مخالف للثابت في الكتاب والسنة وتطبيقات النبي وصحبه الكرام.

فـالله – عـز وجل – يقـول: ﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الآخِرَةَ وَلا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا (٧٧)﴾ (١).

كـمـا أن من دعـاء المسلم: ﴿رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ (٢٠١)﴾ (٢). وعبَّرَ عن ذلك القولُ المأثور: (اعمل لدنياك كأنك تعيش أبدًا، واعمل لآخرتك كأنك تموت غداً!!).

وقد أمرنا ربنا بالسعي في طلب الرزق فقال – تعالى –: ﴿فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ (١٥)﴾ (٣).

كما حثنا – سبحانه – على ذلك بعد أداء صلاة الجمعة فقال – عزَّ من قائل –: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلاةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (٩) فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلاةُ فَانتَشِرُوا فِي الأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيراً لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (١٠)﴾ (٤).

ولذلك كان عراك بن مالك – رضي الله عنه – يقول بعد أن يصلي الجمعة: **اللهم إني سعيت كما أمرتني، وها أنا أنتشر كما أمرتني، فارزقني كما وعدتني...**

ولذلك فقد رفض النبي ﷺ – في حديث متفق عليه – منطق الثلاثة الذين اشتطوا فقرر أحدهم أن يصلي الليل كله فلا ينام، فيما نوى الثاني أن يصوم الدهر

---

(١) سورة القصص: الآية ٧٧.
(٢) سورة البقرة: الآية ٢٠١.
(٣) سورة الملك: الآية ١٥.
(٤) سورة الجمعة: الآيتان ٩، ١٠.

فلا يفطر وتعهد الثالث أن يعتزل النساء فلا يتزوج فقال لهم النبي ﷺ: «**أنتم الذين قلتم كذا وكذا؟ أما والله إني لأخشاكم لله وأتقاكم له، لكني أصوم وأفطر، وأصلي وأرقد، وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني**»!!!.

حتى إن كل عمل مباح يفعله المسلم مبتغيًا به مرضاة الله فإن له بها أجرًا، قال ﷺ من حديث رواه مسلم: «... **وفي بُضْعِ أحدكم صدقة، قالوا: يا رسول الله أيأتي أحدنا شهوته ويكون له فيها أجر؟ قال: أرأيتم لو وضعها في حرام أكان عليه وزر؟ فكذلك إذا وضعها في الحلال كان له أجر**»..

وعليه فالإسلام لا ينظر إلى الدنيا نظرة احتقار، بل ولا إلى الاتصال الجنسي المشروع الذي يؤجر عليه المسلم، في حين تتقذر منه النصرانية وتدعو إلى الرهبانية.

وقال ﷺ: «**لا تحقرن من المعروف شيئًا ولو أن تلقى أخاك بوجه طلق**» [رواه مسلم].

وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «**كل سلامى من الناس عليه صدقة: كل يوم تطلع فيه الشمس وتعدل بين الاثنين صدقة، وتعين الرجل في دابته فتحمله عليها أو ترفع له عليها متاعه صدقة، والكلمة الطيبة صدقة، وبكل خطوة تمشيها إلى الصلاة صدقة، وتميط الأذى عن الطريق صدقة**» [متفق عليه].

فقد تلاحمت الأعمال الطيبة في الحديث، ما كان منها إعانة مسلم في عمل دنيوي، وما كان مشيًا إلى المسجد لأداء صلاة الفريضة، وما كان عملاً ذا نفع عام كإزالة القاذورات من الشارع! فليس في الإسلام دين مقابل الدنيا، إنما هناك دنيا وآخرة، واتباع الدين في الدنيا يكفل السعادة فيها وفي الآخرة معًا، فالعبادات المعروفة جزء من الإسلام، أما مفهومها العام فيشمل كل عمل واجب أو مسنون أو مباح إذا

قُصِد به وجه الله – سبحانه –، ولذلك « ... **فلا يغرس المسلم غرسًا فيأكل منه إنسان ولا دابة ولا طير إلا كان له صدقة إلى يوم القيامة** » [رواه مسلم].

بل إن هذا التلاحم الرائع يبلغ مداه في قول المصطفى ﷺ من حديث معناه: إذا قامت الساعة وفي يد أحدكم فسيلة واستطاع أن يغرسها فليغرسها!!!.

فعلى الرغم مما نعلمه من الكتاب وصحيح السنة عن أهوال القيامة، فإن المسلم مندوب إلى غرس شجرة في ذلك الوقت العصيب!!.

ولذلك فالعمل اليدوي مكَّرم بخلاف ازدراء الجاهلين له، إذ روى المقدام ابن معديكرب (رضي الله عنه) عن النبي ﷺ أنه قال: « **ما أكل أحد طعامًا قط خيرًا من أن يأكل من عمل يده، وإن نبي الله داود عليه السلام كان يأكل من عمل يده** » [رواه البخاري].

وعن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: « **كان زكريا عليه السلام نجارًا** » [رواه مسلم].

وتجويد العمل – لا مجرد أدائه – مطلوب شرعًا، قال ﷺ: « **إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملاً أن يتقنه** »!.

تطبيقات عملية:

يعجز الراصد لسيرة نبينا (عليه الصلاة والسلام) عن العثور على موقف لا يتجاور فيه التوكل على الله إلى جانب العمل بالأسباب إلى أقصى حد ممكن..

فقد أمر النبي ﷺ أصحابه بالهجرة إلى الحبشة مرتين، لأن فيها ملكًا عادلاً لا يُظْلَمُ عنده أحد.. ثم أمرهم بالهجرة إلى المدينة ولحق بهم إليها، لأنه وجد فيها

المناخ الملائم لإقامة نواة لدولة الإسلام، تصلح لتكون منطلقًا إلى الدعوة إلى الله بأمان وطمأنينة.

ومن المدينة قاد المصطفى ﷺ الصحابة بنفسه إلى الحرب مرات عدة (بدر – أحد – حنين...)، كما خطط وبعث السرايا المقاتلة في مهمات محددة.

وفي بدر غيَّر موقع جيشه بعد أن أشار عليه الحباب بن المنذر بموقع أفضل من حيث الأسباب!!.

وفي «أُحُد» تغير ميزان المعركة لصالح قريش، بعد أن خالف الرماة أوامره ﷺ فغادروا مواقعهم في الجبل ظنًّا منهم أن المعركة قد انتهت!!.

وفي غزوة الأحزاب أخذ النبي الكريم بمشورة سلمان الفارسي فأمر بحفر الخندق حول المدينة، وشارك شخصيًا في هذا التحصين الاستراتيجي.

وبعث المصطفى يدعو ملوك الدنيا يومذاك إلى الإسلام، وهذا يدل على الأخذ بالأسباب أيضًا.

وعن أبي إبراهيم عبد الله بن أبي أوفى (رضي الله عنهما) أن رسول الله ﷺ في بعض أيامه التي لقي فيها العدو، انتظر حتى إذا مالت الشمس قام فيهم فقال: «**يا أيها الناس لا تتمنوا لقاء العدو، واسألوا الله العافية، فإذا لقيتموهم فاصبروا، واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف**» **ثم قال النبي ﷺ: «اللهم مُنْزِل الكتاب، ومُجْرِيَ السحاب، وهازم الأحزاب، اهزمهم وانصرنا عليهم»** [متفق عليه].

فهذا الحديث الجليل ذو دلالات عظيمة فيما نحن بصدده. فالنبي يأمر فيه أصحابه بأن يسألوا الله العافية من الحرب وويلاتها، فإن لم يكن ثمة بديل فهم مأمورون بالصبر (الصبر الحقيقي لا الصبر الذي يفهمه بعض الجهلة ويروج له

المتغربون على أنه القبول بالظلم والإخلاد إلى الكسل!!) فالصبر هو الثبات والجلد وتحمل مشاق الجهاد بعد إعداد العدة، ثم يحثهم الرسول ﷺ على الثبات لأن الجنة مأوى الشهداء، ثم يتوجه (عليه الصلاة والسلام) إلى ربه بالدعاء .. فالدعاء مقرون بالعمل الصحيح لا كما انحرف به مفهوم كثير من المسلمين في عصور البدع والجمود فقصروا همتهم كلها على الدعاء وحده!! مع تفريطهم في الأخذ بالأسباب المتاحة..

فَهْمُ الصحابة وتطبيقاتهم:

يؤكد المسار العام للصحابة أنهم اقتدوا بالنبي الكريم، فلم يكن توكلهم على الله ينفك عن الأخذ بالأسباب، في الحروب وفي تسيير أمور الرعية على حد سواء .. وكما قال الشيخ علي الطنطاوي في كتابه «تعريف عام بدين الإسلام» (ج ١ – العقيدة – ص ١٦٠ – ١٦٢).

«خصوم الإسلام يتهمون المسلمين اليوم بالتواكل والتكاسل، لأنهم يؤمنون بالقدر، وإن كان في هذه التهمة بعض الحق، كان السبب فيها سوء فهم كثير من المتأخرين لعقيدة القدر. لقد اتخذها كثير من المسلمين الجاهلين حجة لارتكاب المعاصي، وسبباً للكسل والخمول، مع أن سلفنا قد اتخذوا منها دافعًا إلى العمل وإلى الجهاد.

قرأنا أن الرزق مقسوم، (ما كان لك سوف يأتيك على ضعفك وما كان لغيرك لن تناله بقوتك)، فظن قوم أن مقتضى ذلك ترك الكسب، وإهمال السعي، وأن نقعد بلا عمل، وننتظر أن تمطرنا السماء ذهبًا وفضة، وأن نسافر بلا مال ولا استعداد... وقرأ ذلك السلف، ففهموا منه أن عليهم أن يعملوا كل ما في وسعهم،

وأن يبذلوا لجمع المال من الحلال كل ما في طاقاتهم، ثم إذا استفرغوا الجهد رضوا بما جاءهم، فلم يسخطوا على ربهم، ولم يحملوا الحسد لمن نال من إخوانهم أكثر مما نالوا، ولم يبطرهم الغنى ولم يؤلمهم الفقر.

وسمعنا أن الأجل محتوم، فاتخذنا ذلك سببًا لإهمال التوقي والاحتياط، وإضاعة المسؤوليات، والخلط بين الجريمة المتعمدة وبين القدر الذي وقع بلا جرم(*)، وسمع ذلك أجدادنا فقالوا: إذا كان الأجل محتومًا لا يموت أحد قبل موعده ولو خاض اللهب وتلقى بصدره الرماح، ولا يتأخر عن موعده ولو اعتصم في حصن له سبعة أسوار، فلنعمل لما يرضي الله، نجاهد بأنفسنا في سبيل الله، لا نخشى الموت لأن الموت محتوم، له موعد لا يسبقه ولا يتأخر عنه. ولنجاهد بألسنتنا في إنكار المنكر، ومواجهة الطاغي الظالم بكلمة الحق، فأقبلوا لا يخشون في الحق أحدًا ولا يخافون إلا الله شيئًا.

وفهمنا أن كل شيء مقدر، وأهملنا دراسة سنن الله في الكون، وقوانين الطبيعة التي جعلها ربنا سببًا للنفع والضرر، وكان سلفنا هم علماءَها، وهم الذين يعرفونها ويستفيدون منها، فكان من نتيجة ذلك أن هبطنا من الذروة إلى الحضيض، ونزلنا من الأعالي إلى الأسافل. وكانوا بالإيمان سادة الدنيا وقادتها وأساتذتها، فصرنا المسودين المقودين، وفتحوا بسيف الحق ثلث العالم المتحضر، وفتح عدونا بسيف الباطل قلب بلادنا.

سبب تقديس الأموات:

ولما رأينا (أي رأى بعضنا) أن حياتنا كلها قد فسدت، وأن الأحياء منا قد ذلوا

(*) يسرع السائق حتى إذا اصطدم، قال: إنه القدر، ويهمل التلميذ، فإذا رسب، احتج بالقدر (الهامش للشيخ الطنطاوي).

وذكرنا عز الأجداد وصلاحهم، تحوّل يأسنا من الحاضر إلى أمل بالماضي، وصَار أحياؤنا إلى تعظيم أمواتنا، فنشأت من هنا مظاهر تقديس الأموات، والاعتماد عليهم، وانتظار المدد منهم فظن أن نجاحهم وخيبتنا، تمكنهم من إمدادنا، فصرنا نقيم الأضرحة الفخمة، والقباب العالية عليها، ونبدي في التقديس لها، ما رجع بنا إلى قريب من عقائد الجاهلية، وصرنا ننذر النذور لهذه القبور، ونتوسل بها التوسل الممنوع، وربما طلبنا من أصحابها النفع والضرر، بلا أسباب ظاهرة، ولا واسطة ملموسة. وكل ذلك (رد فعل) لسوء حاضرنا، وجلال ماضينا.

خلط لا مبرر له:

وكل ذلك جر إليه الفهم الخاطئ منا لعقيدة القدر، هذا الفهم الذي جعل منا من يخلط بين النصوص الواردة في الأمور الإرادية، التي نملك التصرف فيها، والأمور التي جعلها الله فوق إرادتنا، وأعلى من أن تصل إليها طاقاتنا، ونشأ هذا الخلط العجيب في المذاهب الكلامية. فمن مدع أن الإنسان مسير لا إرادة له، لأنه لا يستطيع أن يتحكم في عضلة قلبه مثلاً، ولا عمل له في اختيار أبويه، وانتخاب بيئته الأولى، ونسوا أن الله أعطاه عضلات يتحكم فيها، وأعطاه عقلاً يستطيع به أن يصحح (على قدر الإمكان) أخطاء بيئته وآثار تربيته.

وتوسع آخرون، وأعطوا إرادة الإنسان أكثر مما لها في الواقع، وخلطوا تبعًا لذلك في أمر الثواب والعقاب، ونسوا أن الله لا يحاسب الإنسان إلا في حدود حريته وقدرته، ولا يؤاخذه على ما أُكْرِه عليه. وتَخبّطوا في البحث عن عدالة الله، ونسوا الحقيقة الأولى، وهي أن عدالة الله لا تقاس بمقياس العدالة البشرية، وطريق السلامة في عقيدة القدر وفي سائر العقائد، أن نعود فيها إلى المنبع الأصلي: القرآن(*)، وأن

(*) ما من ريب في أن الشيخ الطنطاوي يقصد: القرآن والسنة.

نتبع فيها ما كان عليه السلف من الصحابة والتابعين، وأن ندع هذه البحوث العقيمة التي أثارتها الدراسة الناقصة، للفلسفة اليونانية البدائية السطحية» . . . انتهى الكلام القيّم لفضيلة الشيخ.

أفراد قلائل:

والصحابة – بوجه عام – لم يخوضوا في جدل عقيم حول القضاء والقدر كالذي تسبب فيه المعتزلة والجبريون فيما بعد . . لأن الصحابة كان لهم من حسن الاتباع المقرون إلى سعة الفهم والإدراك ما يغنيهم عن الحذلقة والدخول في متاهة لا ينتج عنها عمل نافع لا في الدنيا ولا في الآخرة!!.

وكان لديهم من المهمات الكبرى الجليلة ما يشغلهم عن السفسطة، فضلاً عن أن عندهم من حصانة التربية النبوية ما يربأ بهم عنها حتى لو وجدوا وقت الفراغ . .

على أن ذلك لا يمنع من حدوث لبس لدى أفراد منهم في حالات محدودة جداً، فالذي كان يعرض له الضباب في إدراكه قضية القدر، سرعان ما يرجع إلى الصواب بعد أن يُبَيَّن له . . ذلك لأن خلافه الأول لم يكن ناشئًا عن هوى ولا بحثًا عن شهرة ولا غيرها من متاع الدنيا الزائل، وإنما هو يعبر عن القضية كما يفهمها بصدق ليس غير، فإذا اتضح له أن موقفه ليس هو الموقف الشرعي الصحيح، فإنه يعود إليه من فوره دونما لجاج ولا تحريف للكلم ومن غير بحث عن معاذير واهية.

وكيف لا يفعلون وقد نهاهم نبيهم عن الجدل من أجل الجدل . . وعن الخوض في القضاء والقدر تحديداً . . فها هو أبو هريرة – رضي الله عنه – يقول:

«خرج علينا رسول الله ﷺ ونحن نتنازع في القدَر، فغضب حتى احمر وجهه حتى كأنما فقئ في وجنتيه حَبُّ الرمان، فقال: أبهذا أُمِرْتم، أم بهذا

أُرْسِلْتُ إليكم؟ إنما هلك من كان قبلكم حين تنازعوا في هذا الأمر، عزمتُ عليكم أن لا تنازعوا فيه » [أخرجه الترمذي].

إنما قد يلتبس أمر عند التطبيق العملي، لكن تصحيحه ميسور، والمخطئ يرجع دونما سفسطه . فقد أخرج البخاري ومسلم ومالك في الموطأ حديثًا طويلاً لابن عباس (رضي الله عنهما) عن لقاء الخليفة عمر بن الخطاب بقائد جنده أبي عبيده ابن الجراح في الشام، وبلوغ عمر نبأ وباء وقع بالشام، فاستشار الفاروق الناس وأخذ بمشورة مشيخة قريش من مهاجرة الفتح فقرر الرجوع بمن معه.. **فقال له أبو عبيدة: أفراراً من قدر الله؟ فقال عمر: لو غيرك قالها يا أبا عبيدة! نعم نفر من قدر الله إلى قدر الله.. فجاء عبد الرحمن بن عوف وكان متغيباً عن حوارهما فقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إذا سمعتم به بأرض فلا تَقْدَموا عليه وإذا وقع بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا فراراً منه»..**

فحمد عمر ربه ثم انصرف.

فعمر على حبه وتقديره أبا عبيدة، يرد عليه بحسم: نعم، نفر من قدر الله إلى قدر الله، وذلك قبل أن يأتي عبد الرحمن فيورد نصًا حاسمًا في المسألة، يؤكد صحة فهم الفاروق للقضاء والقدر.. وأظن أن عمر نفسه (رضي الله عنه) هو الذي مر بصاحب جمل أجرب يدعو ربه أن يشفي له الجمل، فقال له: هلاّ جعلت مع دعائك شيئًا من القطران؟!.

مسؤولية التحريف:

رأينا من النصوص الصريحة من القرآن والسنة، والثابت من سيرة الرسول ﷺ ومن المسار العام لأصحابه من بعده، أنهم فهموا عقيدة القضاء والقدر على أنها

التوكل على الله مع استنفاد الأسباب المتاحة كلها.. فهموها على أنها ثبات في الجهاد، وكسب وكدح في ميادين الرزق، وقول الحق مهما كلف من ثمن، مصداقًا لقوله (عليه الصلاة والسلام): « **لا ينبغي لامرئ شهد مقامًا فيه حق إلا تكلم به فإنه لن يقدم أجله ولن يحرمه رزقًا هو له** » [أخرجه البيهقي والترمذي وابن ماجه]، كانوا – كما وصفهم خالد بن الوليد لقائد الروم – يحرصون على الموت حرص عدوهم على الحياة.

لكن الاعتقاد الصحيح في القضاء والقدر، الذي كان عامل قوة وازدهار، تم تحريفه فيما بعد، بفعل المجادلات العقيمة التي اعتمدت تحريف النصوص أو بترها أو المسلكين معًا، وساعد بعض الحكام في ازدهار هذه النزعة.

لكن التحريف كان في فهم المسلمين، لأن الإسلام نفسه في مصدريه الأصليين محفوظ بحفظ رب العالمين.

وإلا فمن ذا الذي يقارن بين بطولات الصحابة والتابعين في بدر وأحد والخندق وفي حروب الردة وفي اليرموك والقادسية ونهاوند وفتح الأندلس وما وراء النهر وفي بلاط الشهداء وحطين وعين جالوت...

من ذا الذي يقارنها بحال المسلمين عندما دخل التتار بغداد دون مقاومة، حتى إن التتري كان يدخل الشارع فيفتك بأهله وحده إلى أن ينكسر سيفه، فيحطم رؤوس الخانعين بالحجارة، وقد يأمر الواحد من ضحاياه بالاستلقاء والانتظار حتى يعثر هو على الحجارة فيعود والضحية الذليل لم يحاول الهرب – في الأقل – بل لم يرفع رأسه، فيرضُّ التتري رأسه بالحجارة التي جلبها!!!.

صار الناس – بفعل البدع التي يدافع عنها «الحزين» – يطلبون النصر من

الأموات، مع أن طلب النصر من الله – سبحانه – لا يرفع إثم التقصير في الأسباب وإعداد العدة، فكيف بمن يشرك بالله فيطلب الغوث من موتى لا حيلة لهم في دفع مكروه ولا في جلب نفع، أما هذا الطالب وهو حي – نظرياً – فإنه ميت أكثر من الموتى الذين يستغيثهم..

لقد انتظر الناس في دمشق دخول التتار اعتماداً على إسكافي يزعم أنه ولي صالح، فلما جاء تيمور لنك رجع الاسكافي قائلاً للمغفلين من حوله: كيف أرده والخضر – ولي الله – في مقدمة جيشه!!!.

أفيكون الدينُ مسؤولاً عن تحريف المبتدعين له؟.

إن الإسلام – قبل أن تدخل البدع في فهم المسلمين له – كان العنصر الأول للعزة والكرامة والانتصارات المتوالية.

إن الطبيب يعالج المريض ولا يقتله.. والمسلمون هم المرضى، والإسلام هو العلاج الذي يحتاج إلى أطباء مخلصين يدحضون البدع من عقول الناس ويردونهم إلى دينهم رداً جميلاً. ولو كان «الأمين» صادقًا لما اتهم الإسلام بأنه نزعة بدوية!! ولما دافع في الوقت نفسه عن البدع التي شوهت – من بين ما شوهت – عقيدة القضاء والقدر في عقول المسلمين.

وأخيراً...

إن الإيمان بالقضاء والقدر من المزايا العظيمة التي ينفرد بها الإسلام، وخصوصاً أن الإسلام نظام متماسك يشمل العقيدة والشريعة، الأحكام والآداب، العبادات والمعاملات، السياسة والأخلاق...

ولا يتجلى الأثر الإيجابي لعقيدة القضاء والقدر إلا إذا فُهِمت على وجهها

الصحيح الوارد في الكتاب والسنة والتطبيقات النبوية، وإلا إذا أُخِذَت ضمن وحدة متناسقة بين الأركان الأخرى للعقيدة، وثوابت الشريعة وأحكامها.

فالمسلم – في هذا الوضع فحسب – يستوفي الأسباب والشروط، وهو متوكل على ربه الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى.

يتقن عمله وهو يتحرى الإحسان في كل حركة.

يسعى إلى الكسب الشريف، وينفق ماله في وجوه الحلال، وفي دروب الخير.

يعمر الكون لأنها مهمة ندبه الله – عز وجل – إليها، فلا صراع عنده بين الدنيا والآخرة..

إنه يحرث الأرض ويبذر الحَبَّ، ثم يتعهده بالري والتعشيب والتسميد.. لكنه لا يندم إذا جاء المحصول ضئيلاً، لأنه لم يُفَرِّط في الأسباب.. فإذا كان التقصير من جانبه فلا يلوم إلا نفسه، أما بعد أن يبذل الجهد الممكن كله، فإنه سيكون مطمئن القلب، لا يأسى على مافاته، ولا يتطلع بحقد إلى ما في أيدي الناس.

وإذا كان التوفيق حليفه فلن يستعبده الكِبْر، ولن يكون مطية للغرور!! لأن الفضل الحقيقي لله، فعلى العبد فعل الأسباب، أما النتائج فهي بيد الله – جل جلاله – .. ولذلك يؤتي المسلم حق الله في ماله، لأن الله هو المُنْعِم.

إنه يقي نفسه وأهله من الأمراض والأوبئة بكل عوامل الوقاية المقررة صحياً.. وهو لا يفعل ذلك متفضلاً، لأنه آثم إذا تقاعس عن حماية بدنه – ومن يعولهم – من الأذى.

فإذا أصيب – برغم الاحتياطات – فإنه يلتمس العلاج على أيدي المختصين من الأطباء .. فإن وفقهم الله إلى إصابة التشخيص والدواء، فالحمد لله أولاً وآخراً، وهم

مأجورون إن كانوا يرومون بطبهم رضى مولاهم.

وإذا فشل العلاج – دون إهمال من الأطباء – فإنه يرضى بما قدَّره الله، ليحظى بالأجر إذا صبر.. فلا صبر قبل استنفاد الأسباب!.

ولذلك لا يقع ضحية اليأس ولا يفتح للشيطان باباً.. فلا يقول: لو أني، ولولا...

إنه ليس كالذين ينتحرون في الغرب إذا ما يئسوا من الشفاء، أو فشلوا في حياتهم الزوجية، لأنه لا يفتقد العزاء مثلهم.

أجل! فالإيمان بالقضاء والقدر تَحَرُّرٌ من كل صنوف الخوف.. والمؤمن به لا يعرف الخوف من الموت، لأنه ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾﴾ (١).

ولأنه: ﴿إِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَلا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٤٩﴾﴾ (٢).

ولا يعرف الخوف من الجوائح والكوارث، لأنه ﴿قُل لَّن يُصِيبَنَا إِلاَّ مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا ﴿٥١﴾﴾ (٣).. طالما أنه لم يقصر ولم يُفَرِّطْ.

ولا يعرف الخوف على لقمة العيش، لأنه ﴿وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا ﴿٦﴾﴾ (٤). فالرزاق هو الله وليس أحداً من المخلوقين!.

---

(١) سورة الرحمن: الآية ٢٧.
(٢) سورة يونس: الآية ٤٩.
(٣) سورة التوبة: الآية ٥١.
(٤) سورة هود: الآية ٦.

ولا يعرف الخوف على مصير الأهل ﴿نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ (٣١)﴾ (١).

ولا يعرف الخوف من تكالب الأعداء وتضافر الظروف ضده ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ (١٧٣)﴾ (٢).

ولا يعرف القنوط لأنه ﴿لا يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ (٨٧)﴾ (٣).

إن الإيمان بالقضاء والقدر تصدٍّ للظلم، وثبات في وجه الغزاة، لأن المؤمن به من ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنتَصِرُونَ (٣٩)﴾ (٤).

وهو موعود بإحدى الحسنين ﴿قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلاَّ إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ (٥٢)﴾ (٥)، والحسنيان هما النصر المؤزر أو الشهادة الكريمة التي هي حياة عظيمة في جوار المولى – سبحانه – ﴿وَلا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ (١٦٩)﴾ (٦).

إن الإيمان بالقضاء والقدر صدع بكلمة الحق لا تثنيها الرغبة ولا تجهضها الرهبة، لأن سيد الشهداء حمزةُ ورجلٌ قام إلى حاكم جائر فنصحه فقتله – أو : كما قال ﷺ.

---

(١) سورة الإسراء: الآية ٣١.
(٢) سورة آل عمران: الآية ١٧٣.
(٣) سورة يوسف: الآية ٨٧.
(٤) سورة الشورى: الآية ٣٩.
(٥) سورة التوبة: الآية ٥٢.
(٦) سورة آل عمران: الآية ١٦٩.

إنه – بإيجاز – قدرة على مواجهة تخلف اليوم، وتحديات المستقبل.

إنه إرادة المسلم الحق معززة بنصر الله، في وجه كل بغي وعدوان.

إنه التحرر من جميع أشكال العبودية للمخلوقين!.

* * *

تلك الصورة ليست تنظيراً ولا تخيلات، لأنها ظلت واقعًا جميلاً قرونًا عدة، كنا فيها قادة العالم إلى الهدى والنور، ومقصد طلبة العلم، ومصنع حضارة لا مثيل لها لأنها لا تعرف الثنائيات الممزقة بين الدين والدنيا، بين القيم والسياسة.

فإذا كان حاضرنا قد هبط من ذروة التوكل إلى حضيض التواكل، ومن قمم العزة إلى درك الهوان، فإنه ثمرة انحرافنا عن الإسلام إذ جزأناه فآمنا ببعضه وكفرنا – عمليًا في الأقل – ببعض، وأدخلنا في مفاهيمنا عنه ما ليس منه.

والارتقاء ليس مستحيلاً، فالشروط واضحة.. إن التزمناها حققنا النتائج نفسها. ولا يعني ذلك – كما يفهم بعض المتكلسين ويروّج كل الحاقدين – لا يعني الرجوع إلى الوراء، بل التقدم إلى الأمام .. فنحن لا ندعو إلى نكران ما أنجزته الإنسانية في شتى الميادين، وإنما ندعو إلى الأخذ بثوابت الإسلام لا بفهم زيد من القدماء لبعض المتغيرات.. وإذا كنا نعادي تغيير الثوابت بحجة التقدم، فإننا نقاوم – بالدرجة نفسها – تثبيت المتغيرات باسم العودة إلى الإسلام.

* * *

بين القدر والحتمية

لا ينتهي العجب من مسلك أُناس يرفضون القضاء والقدر زاعمين أنه جبر وإنكار لإرادة الإنسان وحريته – وقد تبين لك البون الشاسع بين عقيدة القضاء والقدر في الإسلام، وأباطيل الجبريين والمنكرين للقدر على حد سواء – . .

العجب من هؤلاء الذين يرفضون عقيدة تقرر حرية الإنسان ومسؤوليته عما يفعله حرًا مختارًا، ثم يعتنقون جبريات بشرية سخيفة، تزري بإرادة الإنسان حتى لتكاد تلغيها . . ففي الفكر الغربي من بَالَغَ بقدرات العقل الباطن حتى عده هو القائد الفعلي للإنسان، وحتى أخذت التشريعات هناك تدلل المجرم على حساب أمن المجتمع، زاعمة أن المجرم ضحية دافع نفسي قهري سيطر عليه فقاده إلى القتل!! وهناك من تذرع بالوراثة . . أو بالظروف الاجتماعية (*) إلى آخره . .

ونحن لا ننكر تأثيرات تلك العوامل، إنما نرفض الشطط، فالإرادة الإنسانية لا تخضع لحتميات الوراثة والظروف، والدليل الناصع هو ما يلمسه الإنسان كثيراً من أن امرأتين تتعرضان للفقر بالدرجة نفسها، فتنحرف إحداهما دون الأخرى!! .

إن الإسلام لا يقر تلك الجبريات الكاذبة ولا يرفع التبعة عن الإنسان، إلا في حالات فردية يثبت يقيناً أنها أثرت سلبًا في إرادة الإنسان وقدرته على اتخاذ القرار الصائب، لا أن تصبح كما في الغرب قوانين ثابتة تقوم على احتقار الإرادة الإنسانية وعلى اعتبارها قشة تذروها كل نسمة هواء . . ورغبة مني في تزويد القارئ بلمحة

(*) مثل ميكانيكية الاصطفاء الحتمي العشوائي التي ادعاها دارون في البيولوجيا، وطبقها بعض المفكرين الغربيين على الحياة الاجتماعية!! وكالمذهب الطبيعي الذي روَّج له الكاتب الفرنسي الإباحي إميل زولا، الذي يزعم أنه في ظلم رب العمل للعامل، لا ينبغي لنا توجيه اللوم لأحد، لأن كل إنسان هو ضحية ظروفه!!.

موجزة عن الجبريات المختلفة (ويسمونها أحيانًا : الحتميات)، أثبت هاهنا مقالة قيمة للدكتور محمد علي الفرا بعنوان « الإنسان بين حتمية ابن خلدون وإمكانية لابلاش وفيفر » نشرتها مجلة « الخفجي » . . وهي تؤكد – بصورة غير مباشرة– ما قررتُهُ من قبل عن تهافت أكذوبة أن الجبر نزعة صحراوية!! فها هي حتميات الغرب منذ الإغريق إلى العصر الصناعي الراهن . .

نص المقالة

الحتمية مسألة على جانب كبير من الأهمية، شغلت أذهان المفكرين منذ أقدم العصور وحتى زماننا هذا، شارك في طرحها ومناقشتها علماء من مختلف الأجناس والأقطار، وعلى مر الأزمنة والعصور. واستخدمت في تبريرها وتفنيدها حجج وبراهين، وتباينت فيها الآراء، وظهرت على أثرها المدارس والاتجاهات، فهناك من بالغ في التعصب لها والعمل على نشرها وبثها بين الناس، وهناك من أصر على نقضها وإثبات بطلانها.

ولعل من المفيد أن نبين في بادئ الأمر مفهوم الحتمية، حتى يكون الجميع على بينة من الأمر فيتخذ من يشاء له موقفًا يرتاح إليه، ووجهة نظر يعتقد بصحتها.

مفهوم الحتمية :

الحتمية كلمة تقابلها في الإنجليزية – Determinism، وهي مشتقة من الحتم بمعنى القضاء كقوله سبحانه وتعالى : **(كان على ربك حتماً مقضياً)**، ويحتم الشيء يقتضيه.

وإذا ابتعدنا عن المعنى اللغوي للحتمية ودخلنا في مفهومها الفلسفي فإنها فيه هذه الحالة تعني تحكم البيئة في الإنسان وسيطرتها عليه. والحتمية كفلسفة تدل

على تسلط البيئة الطبيعية على الإنسان على اعتبار أنه أحد الكائنات فيها، فهي تؤثر في خلقته وشكله ونمط حياته وسلوكه وأفعاله وكافة [١] الأنشطة والفعاليات التي يمارسها، أو يمتهنها، على سطح الأرض.

أما البيئة الطبيعية فهي كل ما يكتنف الإنسان ويحيط به من ظاهرات طبيعية بدءًا بموقع المكان أو البيئة فلكيًا أي من حيث موقعه بالنسبة إلى خطوط الطول ودوائر العرض، وما لهذا من علاقة بالقرب أو البعد عن خط الاستواء، وما يترتب على ذلك من خصائص مناخية معينة. وَيُقَوِّمُ الموقع جغرافيًا من حيث قربه أو بعده عن البحار والمسطحات المائية ومدى ارتباطه واتصاله بغيره من المواقع والأماكن وما ينتج عن ذلك من مزايا وخصائص تُكْسِبُ السكان مهارات وقدرات يمكن استغلالها اقتصاديًا.

وتعتبر مظاهر السطح، أي شكل الأرض من ارتفاع وانخفاض عوامل هامة[٢] من عوامل البيئة الطبيعية التي تتأثر بها أنماط الحياة. وليس هناك من ينكر دور المناخ كعامل بيئي في نشاط الإنسان وسلوكه وطباعه. والحياة النباتية ممثلة بمختلف أنواعها وأشكالها، من أعشاب غنية أو فقيرة، وغابات كثيفة أو غير كثيفة، أحد مكونات البيئة الطبيعية والتي يشكل الحيوان الطبيعي عنصرًا من عناصرها.

الإغريق أول من نادى بالحتمية:

لعل الإغريق كانوا أول من أرسى دعائم الحتمية، وحللوا تأثير عوامل البيئة في الإنسان، وأرجعوا التباين في البشر، وسلوكهم وطبائعهم، إلى المؤثرات البيئية.

---

(١) الصواب: والمناشط والفعاليات كافةً..

(٢) الصواب: مهمة.

ففي عام ٤٢٠ ق. م عقد «هيبوقراط – Hippocrates» – أو «أبو قراط» وهو أبو الطب وصاحب القسَم الطبي الشهير – في مناقشته عن الهواء والمكان، مقارنة بين سكان القارة الآسيوية الذين يتميزون بالتسامح والطيبة لكونهم يعيشون في منطقة كثيرة الخيرات وفيرة الأرزاق، وبين الأوربيين الذين يكدحون ويَشْقَوْن للحصول على قُوتِهم في بيئتهم الفقيرة. كما يقارن بين سكان الجبال طوال القامة، أقوياء البنية، وذوي الجرأة والشجاعة والنفوس الطيبة، وبين سكان السهول الجافة ذوي الأجسام النحيلة، والعضلات القوية، والشعور الشقراء [١].

ويردد «أرسطو» نفس الآراء في كتابه «السياسة» حيث يقول: [٢]: «سكان الأقطار الأوربية الباردة شجعان، ولكن ينقصهم التفكير والمهارة الفنية، ولهذا يتمتعون بالحرية مدة أطول من غيرهم، كما ينقصهم التنظيم السياسي ويعجزون عن حكم جيرانهم. أما سكان آسيا فهم على النقيض، حكماء، ولكن ينقصهم الحماس، ومن ثم كانت حالتهم الدائمة هي الخضوع».

ويرى «أرسطو» بأن الأغريق يتمتعون بجميع المزايا والفضائل لأنهم يسكنون منطقة معتدلة، باردة في الشمال وحارة في الجنوب [٣].

مسيرة الحتمية عبر الزمن:

بدأ الاهتمام من جديد بالحتمية، وبخاصة في عصر النهضة الأوربية نتيجة المعارف والحقائق المتراكمة عن أقطار العالم وشعوبها. وقد كان لحركة الكشوف

1. James, P.E, . "All possible Worlds" A History of Geographical Ideas, The Bobbs Merril, New York, 1972, P. 43.

2 . Ibid, PP. 33 - 35.

3 . Ibid.

الجغرافية ابتداء من القرن الخامس عشر للميلاد دور كبير في جلب كثير من المعلومات عن بلدان كانت مجهولة وعن حياة شعوب غير معروفة. وهذه المعارف والمعلومات استخدمت من قبل الباحثين والمفكرين في البرهنة على الحتمية. ففي نهاية القرن السادس عشر، وصف «بودان – Bodin» سكان الأقاليم الشمالية بالشدة والشجاعة والخشونة في حين أن الجنوبيين يتميزون بالخبث والرغبة في الثأر، وهم أقدر من غيرهم على التمييز بين الحق والباطل. أما شعوب المناطق المعتدلة فيتفوقون على الجنوبيين في قدراتهم ومواهبهم وفعالياتهم، وفيهم الصفات التي تمكنهم من حكم الأمم وقيادتها.

ونجد مثل هذه الأفكار عند كثير من المفكرين وأصحاب الرأي البارزين على اختلاف تخصصاتهم فهذا «مونتسكيو – Montesquieu» في مؤلفه «روح القوانين» يقول بأن المناخ الحار يسبب الجمود في العادات والتقاليد والشرائع والقوانين، ويقارن «مونتسكيو» بين شعوب العالم حسب طبيعة البيئة التي يعيشون عليها فيقول: (١).

«إن سكان الجزر أكثر تمسكًا بحريتهم من سكان القارات. وبما أن الجزر غالبًا ما تكون صغيرة المساحة فإن من الصعب أن يستعبد بعض سكانها البعض الآخر.. إن البحر يقف حاجزًا فيمنع الغزاة، ولذلك فإن سكان الجزر يشعرون بالأمن وينعمون بحريتهم ويسهل عليهم التمسك بقوانينهم».

(١) جريفث تيلور (محرر) «الجغرافية في القرن العشرين» (مترجم) جـ ١، الهيئة المصرية العامة للكتاب، صفحة ١٧٧.

حتمية ابن خلدون :

كان عبد الرحمن بن خلدون الذي عاش في القرن الرابع عشر للميلاد من أكبر دعاة الحتمية وفلاسفتها والعاملين على نشرها وبثها بين الناس. وقد استفاد كثيراً من اطلاعاته الواسعة لمؤلفات من سبقه من الكتاب والمفكرين سواء كانوا عربًا أو إغريقًا ورومان، وتأثر بنظرياتهم وأفكارهم. ولعل فلسفة الحتمية كانت نتاج هذا الاطلاع الواسع وقراءاته المكثفة. ولكنه لم يكن مجرد ناقل لأفكار غيره بل كان مبدعًا في كثير مما ألف وكتب وبحث، وبخاصة فيما يتعلق بالعمران البشري والاجتماع والتاريخ وفلسفته.

وفيما يختص بالحتمية، فقد جاء ابن خلدون بالكثير من الأدلة والبراهين التي يؤيد بها وجهة نظره مستفيداً من رحلاته المتعددة وجولاته في إفريقيا وآسيا. وبناء عليه، فقد استطاع ابن خلدون أن يستثمر هذه الرحلات والجولات في شرح العلاقة بين البيئة والإنسان، ومدى الارتباط بينهما، ونوع التفاعل الموجود بين مختلف عناصر كل منهما، وخرج بنتيجة مؤداها أن البيئة بمختلف عناصرها تؤثر في الإنسان وتحتم نمط سلوكه وحياته كما سنرى الآن.

* * *

العلاقة بين المناخ والإنسان عند ابن خلدون :

يفرد ابن خلدون للمناخ في «مقدمته» جزءاً خاصًا تحت عنوان «في المعتدل من الأقاليم والمنحرف وتأثير الهواء في ألوان البشر والكثير من أحوالهم» يقول فيه: (١).

(١) عبد الرحمن بن خلدون، «كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر»، دار العودة، بيروت، صفحة ٦٥ - ٦٨.

«إن المعمور من هذا المنكشف من الأرض إنما هو وسطه لإفراط الحر في الجنوب منه، والبرد في الشمال. ولما كان الجانبان من الشمال والجنوب متضادين في الحر والبرد وجب أن تتدرج من كليهما إلى الوسط، فيكون معتدلاً فالإقليم الرابع أعدل العمران.. فلهذا كانت العلوم والصنائع والملابس، والأقوات والفواكه، بل والحيوانات وجميع ما يتكون في هذه الأقاليم الثلاثة المتوسطة مخصوصة بالاعتدال، وسكانها من البشر أعدل أجسامًا وألوانًا وأخلاقًا وأديانًا، حتى النبوات فإنما توجد في الأكثر منها.. وأما الأقاليم البعيدة من الاعتدال، فأهلها أبعد من الاعتدال في جميع أحوالهم، فبناؤهم بالطين والقصب، وأقواتهم من الذرة والعشب، وملابسهم من أوراق الشجر يضعونها عليهم أو الجلود، وأكثرهم عرايا من اللباس.. وأخلاقهم مع ذلك قريبة من خلق الحيوانات العجم حتى ينقل عن الكثير منهم أنهم يسكنون الكهوف والغايض، ويأكلون العشب، وأنهم متوحشون غير مستأنسين يأكل بعضهم بعضًا».

ويسخر ابن خلدون من بعض النسابين الذين يقولون بأن السود هم نسل حام ابن نوح، واختصوا بهذا اللون لدعوة كانت عليهم من أبيهم، ظهر أثرها في لونه، وفيما جعل الله من الرق في نسله. ويعلل ابن خلدون سواد البشرة إلى نوع المناخ الذي يعيش فيه السود وفي هذا يقول [١].

«... وفي القول بنسبة السواد إلى حام غفلة عن طبيعة الحر والبرد وأثرهما في الهواء، وفيما يتكون من الحيوانات، وذلك أن هذا اللون شمل أهل الإقليم الأول والثاني من مزاج هوائهم للحرارة المتضاعفة بالجنوب، فإن الشمس تُسَامِتُ رؤوسهم مرتين في كل سنة، قريبة إحداهما من الأخرى، فتطول المسامتة عامة الفصول، فيكثر

(١) عبد الرحمن بن خلدون، «كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر»، دار العودة، بيرت، صفحة ٦٥ - ٦٨.

الضوء لأجلها، ويلح القيظ الشديد عليهم، وتَسْوَدُّ جلودهم لإفراط الحر، ونظير هذين الإقليمين فيما يقابلهما من الشمال، الإقليم السابع والسادس شمل سكانهما أيضًا البياض من مزاج هوائهم للبرد المفرط بالشمال، إذ الشمس لا تزال بأفقهم في دائرة مرأى العين، ولا ترتفع إلى المسامتة، ولا ما قرب منها، فيضعف الحر فيها، ويشتد البرد عامة الفصول فتبيض ألوان أهلها».

الموارد البيئيَّة وأثرها على البشر عند ابن خلدون:

ولا يقتصر تأثير البيئة في الإنسان من حيث أجناسه وسلالاته، وسلوكه وطباعه، ونشاطه وأفعاله وإنما يتعدى ذلك عند ابن خلدون إلى أثر الموارد البيئية على نمط الحياة وشكل العمران، ويقول ابن خلدون في «المقدمة الخامسة في اختلاف أحوال العمران في الخصب والجوع، وما ينشأ عن ذلك من الآثار في أبدان البشر وأخلاقهم» ما يلي [١]:

«إن هذه الأقاليم المعتدلة ليس كلها يوجد بها الخصب، ولا كل سكانها في رغد من العيش، بل فيها ما يوجد لأهله خصب العيش من الحبوب والأدم والحنطة والفواكه لزكاء المنابت، واعتدال الطينة ووفور العمران، وفيها الأرض الحرة التي لا تنبت زرعًا ولا عشبًا بالجملة فسكانها في شظف من العيش».

ويبالغ ابن خلدون في تأثير البيئة على الإنسان مبالغة شديدة حتى فاق من سبقه من فلاسفة الحتمية، فهو يربط بين الطعام والذكاء، ويفسر ذكاء بعض الشعوب إلى نوع [*] الأطعمة التي تتناولها، وفي ذلك يقول: [٢].

---

(١) المرجع نفسه، صفحة ٦٩ - ٧٣.

(*) والصواب: بنوع الأطعمة..

(٢) المرجع نفسه، صفحة ٧٠.

« ... فإنا نجد أهل الأقاليم المخصبة العيش الكثيرة الزرع والضرع والأدم والفواكه يتصف أهلها غالبًا بالبلادة في أذهانهم والخشونة في أجسامهم، وهذا شأن البربر المنغمسين في الأدم والحنطة مع المتقشفين في عيشهم المقتصرين على الشعير أو الذرة مثل المصامدة وأهل غمارة والسوس، فتجد هؤلاء أحسن حالاً في عقولهم وجسومهم، وكذا أهل بلاد المغرب على الجملة المنغمسون في الأدم والبر مع أهل الأندلس المفقود بأرضهم السمن جملة وغالب عيشهم الذرة فتجد لأهل الأندلس من ذكاء العقول، وخفة الأجسام وقبول التعليم ما لا يوجد لغيرهم».

ونحن بالطبع لا نوافق ابن خلدون فيما ذهب إليه، ونعتقد أنه تطرف ومبالغة، فهو أعطى البيئة كل شيء ولم يحاول أن يبرز دور الإنسان، وتأثيره في البيئة وهذا ما سنوضحه بعد قليل.

الحتميَّة في العصر الحديث:

حرص كتَّاب القرنين الثامن عشر والتاسع عشر على إبراز أثر البيئة في الإنسان، ولكن منهم من ناقش الأمر بروية وعقلانية، في حين أن بعضهم غالى في ذلك ووصل إلى حد التطرف.

فالجغرافي الألماني الأشهر «الكسندر فون همبولت-Alexander Von Humboldt» (١٧٦٩ – ١٨٥٩م) يعالج الموضوع بهدوء ويقول: (١)

«لا حاجة لي بالخوف من أن يسيء البعض فهم كلامي فيظن أني أنكر ما للتكوين الطبعي للقطر من أثر كبير في طبائع سكانه. ولا ريب في أن سكان المناطق الجبلية يختلفون اختلافاً تامًا عن سكان أقاليم السهول».

---

(١) جريفث تيلور، مرجع سابق، صفحة ١٨١.

ويقول «همبولت» في كتاب الشهير «الكون – Cosmos» عن مدى تأثير التضاريس في نشوء المدنيات القديمة وتطورها ما يلي:

«سرعان ما ظهر أثر البحر في قوة الفينيقيين، وفيما بعد في الشعوب الإغريقية.

هذا وقد حمل الأفكار الحتمية مفكرون من كافة الاختصاصات مثل عالم الأحياء السويسري «إرنست هيكل – E. Haeckel» الذي أرسى قواعد علم جديد أطلق عليه «الإيكولوجيا – Ecology» أو «علم البيئة» أي التكيف مع البيئة. وفي التاريخ اعتقد «بكل – Buckle» بالحتمية اعتقاداً منه بأن ذلك خير ما يرفع التاريخ إلى مستوى العلوم الطبيعية القائمة على السببية.

وتأتي العالمة الجغرافية الشهيرة «إلين تشرشل سمبل – Ellen C. Semple» على رأس غلاة المتطرفين للحتمية والمنادين بسيطرة البيئة وبسلبية الإنسان، وقد أخذت الأفكار الحتمية من أستاذها «راتزل – Ratzel»، الذي تتلمذ من قبل على يد «هيكل». إلا أن «سمبل» بالغت كثيراً في آراء أستاذها حتى اتهمها البعض بأنها أساءت إليه لأنها نشرت أفكارها باللغة الإنجليزية في كتاب يحمل نفس (*) اسم كتاب أستاذها – Anthropo geography والذي نشر بالألمانية فقط.

تقول «سمبل» عن البيئة وأثرها في الإنسان وذلك في عام ١٩١١ ما يلي: (١)

«الإنسان نتاج سطح الأرض، وليس معنى هذا أنه مجرد ابن الأرض وجزء من ترابها، ولكن معناه أن الأرض أرضعته، وغذته، وحددت واجباته، ووجهت أفكاره، وجابهته بالصعاب التي تقوي جسمه وتشحذ عقله، وأعطته مشاكل الملاحة، ومشاكل الري، وفي الوقت نفسه همست له بحلول لتلك المشاكل. لقد تغلغلت

(*) والصواب: يحمل اسم كتاب أستاذها نفسه..

(١) المرجع نفسه صفحة ١٩٧.

في عظامه ولحمه وروحه وعقله».

لا شك في أن مثل هذا القول مبالغة في أثر البيئة، وتحقير للإنسان الذي يبدو وكأن لا دور له، ولا أثر له. وفيه أيضاً الكثير من المغالطات. فقد كشفت الدراسات البشرية المتعمقة في مختلف جهات العالم عن أمور كثيرة لا يمكن تفسيرها من الناحية البيئية وحدها، فهناك بيئات متشابهة طبيعيًا، ولكنها مختلفة بشريًا. فمثلاً يختلف سكان الأسكيمو كثيراً عن الجماعات البشرية التي تقطن التندرا في سيبريا، كما أن الأقزام الصيادين يسكنون مع الزنوج الزراعيين في الغابات الاستوائية في وسط إفريقية ومع ذلك فهما علي طرفي نقيض.

كما أن فعالية الإنسان لا يمكن إنكارها فمراكز الصناعة اليوم لا تعتمد على العوامل البيئية بمقدار ما تعتمد على الكثير من العوامل البشرية. ولو حاولنا تفسير شتى الظاهرات البشرية والفعاليات كنشوء المدن والمستوطنات والزراعة وأنماطها، لوجدنا أن البيئة وحدها ليست السبب في كل ذلك.

نشأة الإمكانيَّة:

يميل المختصون في العلوم الإنسانية إلى إبراز دور الإنسان وإظهار فعاليته ونشاطه، ويقولون بأن الإنسان ليس بالكائن السلبي أو الخامل الذي يتقبل المؤثرات البيئية دون أن يكون له دور. إنه على خلاف الكائنات الأخرى، فبفضل العقل الذي أنعم الله به عليه يستطيع أن يذلل الكثير من عقبات البيئة، ويحل أموراً كانت مستعصية، بل وتعدى هذا الدور وصار يؤثر في البيئة محدثًا فيها تغييرات جوهرية ملموسة، فقد شق الأنفاق في الجبال، وحفر الترع والقنوات ووصل البحار، وأقام التلال، وأباد الحشائش، والغابات، وساعد على انقراض بعض الحيوانات، وعمل على توالد البعض

الآخر، وأحدث بذلك معالم بيئية جديدة. كما تدخل في الطقس والمناخ، وتغلب على الحرارة الشديدة، والبرودة المتطرفة، وسبب تخلخلاً في الدورة الهوائية، وتغيرات واضحة في الطقس والمناخ العالمي، مما قد يؤدي إلى نتائج خطيرة.

إن الدور الإيجابي الذي يؤديه الإنسان على سطح الأرض، وضمن حدود بيئته الطبيعية، كان الأساس الذي قامت عليه فلسفة الإمكانية – Possibilism التي تنادي بقدرة الإنسان وإمكانياته في تذليل عقبات البيئة. وعلى الرغم من أن العالم الفرنسي «لوسيان فيفر – Febvre» هو أول من أطلق كملة «الإمكانية» في كتابه «مقدمة جغرافية للتاريخ» إلا أنها (*) كفلسفة ارتبطت بشكل قوي بكتابات أستاذه الجغرافي الفرنسي الشهير «فيدال دي لابلاش – Vidal de Ia Blache (١٨٤٥ – ١٩١٨م) وكذلك كل من «بومان – I. Bowman» و«كارل ساور – Carl Sauer» في الولايات المتحدة الأمريكية. ويرى «لابلاش» أن هناك دوراً ينبغي أن يوكل إلى الإنسان بوصفه عاملاً جغرافيًا، والإنسان إيجابي وسلبي في وقت واحد، والنشاط البشري يعمل على تعديل الظواهر العضوية وغير العضوية على سطح الأرض. وفي هذا الصدد يقول «لابلاش» ما نصه (١):

«لا يستخدم الإنسان عندما يغير معالم سطح الأرض، الوسائل غير العضوية وحدها وهو لا يقنع بأن يستخدم الآثار التي تتخلف عن تحلل التربة بطريق الحرث، ولا يكتفي باستغلال المساقط المائية بما لها من قوة الجاذبية المستمدة من اختلاف تضاريس سطح الأرض، ولكنه يتحالف مع جميع القوى الحية التي تشتمل عليها أحوال البيئة التي يعيش فيها، ولهذا فهو شريك للطبيعة في دورها».

(*) والصواب: فإنها...

(١) المرجع نفسه – ص ٢١١.

وبهذا القول يرى «لابلاش» أن هناك تفاعلاً بين البيئة والإنسان فهي لا تحتم عليه نمط حياته وسلوكه وأفعاله، وهو أيضًا لا يستطيع إنكار دور البيئة عليه.

أما «لوسيان فيفر» فَيُغَلِّب دور الإنسان ويعطيه وزنًا أكثر من الوزن الذي أعطاه له أستاذه «لابلاش». يقول «فيفر» في هذا الشأن ما يلي: (١).

«الإنسان عامل جغرافي، بل إنه ليس أقل العوامل الجغرافية شأناً، وفي كل مكان يساهم الإنسان بنصيب في تغيير وجه الأرض فيكسبه ملامح جديدة، وهي المهمة التي يجب على الجغرافية أن تدرسها. وعلى مر العصور وكر الأعوام تتراكم نتائج أعماله وبهذه الأعمال وبالإقدام والتصميم في الجهود التي يبذلها يمكننا أن نقول: إن الإنسان عامل من أقوى العوامل التي تشكل وجه الأرض».

وقد بالغ «فيفر» فيما بعد في دور الإنسان فأعطاه كل شيء بعد أن سلب البيئة كل شيء فهو يقول: (٢). «لا توجد في الطبيعة ضروريات أو حتميات، بل هناك دائماً إمكانات، وبما أن الإنسان سيد الإمكانات فإنه هو الذي يحدد ما يستعمله منها».

الحتمية والإمكان في الميزان:

وخلاصة القول: إن الحتمية قللت من دور الإنسان، وربما أهملته في حين أن الإمكانية أعطته دوراً بارزاً. ونحن بدورنا لا نقلل من تأثير البيئة في الإنسان، وكذلك لا ننكر دور الإنسان في البيئة. فالبيئة لها تأثير واضح في الفعاليات والأعمال التي يقوم بها الإنسان فهو يستثمر مواردها، ويستغل إمكاناتها. وتختلف

---

(١) المرجع نفسه - ص ٢١٠.

(٢) حسن طه النجم، «دراسة في الفكر الجغرافي» مجلة عالم الفكر، المجلد الثاني - العدد الثاني، ١٩٧١م، صفحة ١٢٨.

الأعمال والنشاطات بحسب موقع تلك البيئة فنجد أن الموقع البحري على سبيل المثال يغري الناس بالحِرَف البحرية، في حين أن المناطق السهلية الخصبة ساعدت على قيام الزراعة، أما البيئات ذات الأعشاب الوفيرة فقد مهدت إلى نشوء حرفة الرعي. وفي المناطق الجبلية ذات الموارد المعدنية، امتهن الإنسان حرفة استخراج المعادن. ولكن على الرغم من هذا فإنه يمكن القول بأنه لولا فعالية الإنسان وقدراته لما استطاع استغلال تلك البيئة واستثمارها، ولكان شأنه شأن سائر الكائنات الأخرى التي تخضع للبيئة خضوعاً مطلقاً. وعلى أية حال فإن العلاقة بين الإنسان والبيئة علاقة تفاعلية، أي أن كلاً منهما يؤثر في الآخر ويتأثر به، وإن من الأفضل للإنسان عدم الإخلال بالنظام البيئي لأن في هذا خطراً كبيراً على الإنسانية ومستقبلها» . . انتهى نص مقال الدكتور الفرا، الذي ينسف – ضمناً – كل ادعاءات الأمين عن العلاقة المزعومة بين الجبر والبداوة ، ليشوه بها عقيدة القضاء والقدر، فها أنت قد رأيت حجم الجبر والحتم في فكر الغربيين منذ الإغريق حتى يومنا هذا، مع أنهم اليوم سادة الصناعة وليسوا من البدو!!.